الحلقة السابعة

الملك يطلب أن يكون يوسف أمينه ومستشاره

تولية يوسف خزائن مصر

مجيء إخوة يوسف ضمن الوفود للميرة لمصر

يوسف يعرف إخوته وهم لم يعرفوه

يوسف يطلب منهم إحضار أخيهم من أبيهم

يعقوب يستوثق من بنيه ليرسل بنيامين معهم

obeikandl.com

الآيات القرآنية التى صيغ منها شعر الحلقة السابعة

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧) وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ .

أشعار الحلقة السابعة

هذى صواحب يوسف أقررن بالصديق المبين ١
برأنه من كل عيب من سلوك الفاسقين ٢
وكذا زليخا حيث قالت : إنه عفٌّ أمين ٣
سمع المليك مقالهنّ فصار مثل الذاهلين ٤
من ثم قال لجنده من حوله والحارسين ٥
فلتحضروا لى يوسف الصديق فوراً مسرعين ٦
كى أصطفيه فإننى فى حاجة للمخلصين ٧
الشوق يغلبنى لرؤيته لكيما أستبين ٨
قد أحضروا الصديق فوراً كان فى سجن مهين ٩
مذ جاء قال له المليك: غدوت فى أمن أمين ١٠
وكرامة نعطيكها ، ولقد أمنت الكائدين ١١
وتفوز بالتمكين بعد السجن بين المجرمين ١٢
قد كان يوسف حاذقاً ، بل كان ذا عقل رصين ١٣
فوراً تحدث للمليك ،وقال قول العارفين ١٤
يا أيها الملك العظيم ، هديت للرأى الفطين ١٥
الرأى عندى والصواب أراه كالنور المبين ١٦
إن البلاد بحاجة للمخلصين الحازمين ١٧
كى يحفظوا خير البلاد من البغاة المفسدين ١٨
إنى على هذا قدير من خيار الحافظين ١٩
فلتعطنى شرفاً لأحفظ مال مصر من السنين ٢٠
سمع المليك مقالة الصديق سمع الفاهمين ٢١
من ثم قال له بحق : أنت ذو عقل ودين ٢٢
أنى أرى فيك النجابة والذكاء المستبين ٢٣
ولقد جعلتك خازنا للمال دون العالمين ٢٤

obeikandl.com

كـى تحفـظ الأموال مـن أيدى الـبغـاة العـابثـين ٢٥
ثـقة المـلـيـك بيـوسف كـانت جـزاء الصـابريـن ٢٦
قد صار يـوسف سيداً فـى مصر أرض الخالـدين ٢٧
بـالأمـس كـان مـكـبلاً بـالـذل بـين المجـرمـين ٢٨
والـيـوم صـار مـكـرماً تـكـريم رب الـعـالمـين ٢٩
هـذا جزاء الـلـه فى الـدنـيـا لكـل المخـلصـين ٣٠
وهـنـاك يوم الحـشـر خـير لـلـرجـال المتـقـين ٣١
القـحط قد عـم القرى والنـاس صاروا جائـعين ٣٢
لـكـنهـم هـرعـوا إلى أرض الـكـنـانة ذاهـبـين ٣٣
هرعـوا لأخذ الـقوت حتـى لا يصيـروا هالـكين ٣٤
قـد كان إخـوة يـوسف بـين الوفـود الـقادمـين ٣٥
لمـا رآهـم صـار عـارفـهم، ولـيـسـوا عـارفـين ٣٦
قـد سُرَّ يوسـف إذ رأى إخوانـه فى الـوافديـن ٣٧
نـاداهم الـصديـق، من أنـتم ! أجـابوا قـائلـين ٣٨
إنـا بنـو يـعـقوب آل الـبـيت نـسـل المـرسلـين ٣٩
قحـط البـلاد أصابـنا ،جـئنـا مجـىء المكـرهين ٤٠
جـئنـا لـكى نـكـتال ثـم نـعود عـود الـغانمـين ٤١
كى نـطعـم الأفواه مـن جوع فـنعـم المطـعمـين ٤٢
قـد أردف الصـديق يـسـألهـم سـؤال المسـتبـين ٤٣
إنـى أراكـم عـشـرة، أى إخـوة مـتـآلـفـين! ٤٤
فلـتخبـرونى هل تـركتم خلـفكم متخلـفين؟! ٤٥
قالـوا: تركـنا الـشيخ مـعه صـغيـره وبه ضـنين ٤٦
هو حِبّه كـأخيـه يوسـف كان من خـير الـنبـيين ٤٧
اثـنان إخـوتـنـا ، وليـس لأمـنـا ، هذا يـقـين ٤٨
لكـن يوسـف لم يعـش وأبوه ظـل علـى الأنين ٤٩
قـد أنـزل الصـديـق إخـوته كـخـيـر المنـزلـين ٥٠
أعطـى لهـم من خـير مـا أعطـى لقـوم آخريـن ٥١

قد جهزوا أوثاقهم كيما يعودوا قافلين ٥٢
لكن يوسف قال يوصيهم وصية ناصحين ٥٣
فلتسمعوا قولى وكونوا للمقالة مدركين ٥٤
إذ ما أردتم عودة للكيل عود الراغبين! ٥٥
هاتوا أخاكم من أبيكم فليكن فى الوافدين ٥٦
أفليس قد أوفيتكم كيلاً وكنتم مكرمين؟! ٥٧
إن لمْ يجئْ معكم فلا تأتوا لكيل طالبين ٥٨
فلتدركوا نصحى وكونوا للنصيحة فاهمين ٥٩
قالوا : فلن يرضى أبوهُ، لأنه شيخٌ حزين ٦٠
من بعد يوسف لم يكفّ عن البكاءِ مدَى السنين ٦١
لكن سنسأله ونرجو أن يجيب وأن يلين ٦٢
فلعلهُ يرضى ويعطينا الغلام المستكين ٦٣
فتيان يوسف حوله كانوا جميعاً واقفين ٦٤
أوحى لهم ، دُسوا البضاعة فى رحال العائدين ٦٥
إذ ما رأوها عند عودتهم يصيروا لائمين ٦٦
فيكون هذا دافعاً لمجيئهم ، هذا يقين ٦٧
فوراً أطاعوا أمره كانوا بحق فاهمين ٦٨
قد عاد إخوة يوسف للأهل عود الغانمين ٦٩
وصلوا لأهليهم، وكانوا من رحيل متعبين ٧٠
واستقبل الشيخ الكبير بنيه كانوا غائبين ٧١
عن قول يوسف أخبروه، ولم يكونوا كاذبين ٧٢
قالوا: فإن عدنا لمصر لأجل كيل طالبين! ٧٣
لا بدْ يصحبنا أخونا ، وهوفى أمن أمين ٧٤
أرسله معنا سوف نحفظه من المتطاولين ٧٥
الشيخ قال لهم: فكفوا، لا تكونوا جاهلين ٧٦
هل تذهبون به كما كنتم بيوسف ذاهبين؟! ٧٧
لكن لأجل العيش قد أرضى رضاءَ المكرهين ٧٨

والله يحفظكم جميعاً ،فهْو خيرُ الحافظين ٧٩
فتحوا المتاع إذا بضاعتهم! غدواْ متسائلين ٨٠
فتلاوموا من كونهم قد أشبهوا للسارقين ٨١
من ثم قالوا: يا أبانا ، قد غدونا حائرين ٨٢
هذى بضاعتنا أتتْ معنا ،ولسنا فاهمين ٨٣
هيا فسوف نعيدها لعزيز مصر ، مبادرين ٨٤
هذا إذا شئنا العدالة ، أو سنغدو ظالمين ٨٥
أما أخونا فهو فى أمن من الكيد المهين ٨٦
ونصيبه سيكون حملا من طعام الآكلين ٨٧
الحمل سوف يزاد مع أحمالنا ، هذا يقين ٨٨
الشيخ قال لهم: فكونوا للمقالة مدركين ٨٩
إنى المجيب لما طلبتم بالشروط الحازمين ٩٠
أن تقسموا بالله ربِّ العرش ربّ العالمين ٩١
أن تحفظوه من الأذى ما لم تكونوا عاجزين ٩٢
قد أقسموا للشيخ حتى يطمئن ويستكين ٩٣
لما اطمأن الشيخ صاروا كلهم متوكلين ٩٤

ثبوت براءة يوسف أمام الملك

.....

هـذى صواحـب يوسـفٍ أقررن بـالـصديـق المبـين ١
بـرأنـه مـن كل عـيـبٍ مـن سـلـوك الفـاسـقـين ٢
وكـذا زلـيـخـا حـيـث قـالـت : إنـه عـفٌ أمـين ٣
سـمع المـلـيك مـقـالهـنّ فـصـار مثـل الـذاهلـين ٤

بعد أن استمع ملك مـصر شهادة النسوة اللواتى جمعهن فـى قصره ، وسألهن عن شأن يـوسف الصـديق ، ماذا يعـلمن عـنه ! عن سـلوكه . . عن أخـلاقه ؟! فكـانت إجابتهن جميعاً ، البراءة ليوسف من كل عيب ، بحيث لم يتصف بصفة ذميمة مطلقاً . العفة كلها . .الطهر كله . .الإيمان الذى يسمو بصاحبه إلى قمة المثالية ،وتأتى بعد ذلك ، امرأة العزيز ،فتؤيد شهادتها شهادة النسوة،بل تضيف إليها ما هو أكثر صراحة، فتتوج كل ما قيل بالاعتراف الصريح ، فتقر أمام الملك ، أنها هى التى راودت يوسف عن نفسه .

وتزداد صراحتها فتقول : إنها حاولت إغراءه واستمالته ، بكل وسيلة ممكنة ،فأبى فى عفة وترفع .

ـ قال الفخر الرازى تعـليقاً على شهادة امرأة العزيز : هذه شـهادة جازمة من تلك المرأة،بأن يوسف صلوات اللّه وسلامه عليه،كان مبرأ من كل الذنوب،مطهراً من جميع العيوب . . وهاهنا دقيقة : وهى أن يوسف راعى جانب امرأة العزيز، حيث قال :﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُن ﴾ فذكرهن ، ولم يذكر تلك المـرأة البتة فعرفت المرأة أنه إنما ترك ذكرها رعاية لحقـها ،وتعظيماً لجانبها ، وإخفاء للأمر علـيها، فأرادت أن تكافئه على هذا الفعل الحسن ، ،فلا جرم أزالت الغـطاء والوطاء واعترفت بأن الذنب كله كان من جانبـها ، وأن يوسف عليه السلام كان مبرأ عـن الكل ،ورأيت فى بعـض الكتب ، أن امرأة جاءت بزوجها إلى الـقاضى ،وادعت عليه المهر، فأصر القـاضى بأن يكشف عن وجهها ، حتى تتمكن الشهود ،مـن إقامة الشهادة ، فقال الزوج : لا حاجة إلى ذلك، فإنى مقر بصدقها فى دعواها .

قالت المرأة : لما أكرمتنى إلى هذا الحد ، فاشهدوا أنى أبرأت ذمتك من كل حق لى عليك .بعد هذا كـله ، شعر الملك برغبة شديدة ، أن يرى ذلك الإنـسان الذى اكتملت فيه كل صفات الكمال . كان هذا كله من خلال شهادة النسوة وامرأة العزيز .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه «القصص القرآنى »:وتشتد رغبة الملك ، فى لقاء يوسف بعد أن قامت الأدلة ، ناطقة بعفته ومروءته ويقع يوسف من نفسه موقعاً متمكناً ، إذ رأى فيه الرجل الذى يجد عنده من سداد الرأى ، وصدق النصح ، وحسن التدبير ، مـا يقيم ملكه على دعائـم قوية ،وخاصة عند هبوب هـذا الإعصار المزلزل ، الذى سيمر بالبلاد عما قليل .

obeikandl.com

الملك يطلب إحضار يوسف ليكون مستشاره وأمينه

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ... ﴾

مِن ثَمّ قـال لجنـده مـن حـولـه والحـارثـين ٥
فلـتحـضروا لـى يوسـف الصـديق فـوراً مسـرعين ٦
كـى أصطـفـيه فـإنـنى فـى حاجـة لـلمـخـلصـين ٧
الـشـوق يـغـلبـنـى لـرؤيـتـه لـكـيمـا أسـتـبـين ٨

لقد انجلت الصورة ووضحت، وثبتت براءة يوسف الصديق لدى الملك ، مما نسب إليه، وأدخل السجن بـبـيه . فمن ثم عظمت فى نفسه منزلته، وبالتالى شعر بشوق شديد لرؤيته . فقال لحراسه: هيا احضروا يوسف من السجن ، أريده أن يـكون قريباً منى، أريده مستشاراً لى فى كل شئون الدولة، أريد أن أشركه معى فى تدبير أمر ملكى . ذلك لأننى أتصـوره رجلاً بلغ الكمـال فى مثاليته ، ورجـاحة عقله ، وإخلاصـه وقوة إيمانه وفطنته . اذهـبوا إليه فى السجن ، لا تزعـجوه ، خاطبوه بكل احتـرام ، إنه أمل مصر الذى سوف يحميها من عوادى الدهر ، وسوف تتحقق آمالها على يديه .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ... ﴾ لما ثبتت براءته مما نـسب إليه ، وتحقق فى الـقصة أمانته ، وفـهم أيضاً صبره وجلـده ، عظمت منزلته عنده ، وتيقن حسن خلاله قال: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ .

فانظر إلـى قول الملك أولا ـ حين تحقـق علمه ـ ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ فقط ، فلـما فعل يوسف ما فعل ثانياً قال: ﴿ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ .

قال الشيخ محمـد على الصابونى فى تفسيره « مـع أعلام المفسرين » : « ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ . أى ائتونى بيوسف ، أجعله من خاصتى وخلصائى، قال ذلك لما تحقق براءته، وعرف عفته وشهامته وعلمه . . » .

قال الفـخر الرازى: لما ظهـر للملك هذه الأحـوال من يوسف ، رغب أن يـتخذه لنفسه فقال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ روى أن الرسول قال ليوسف عليه السلام ، قم إلى الملك متنـظفاً من درن السجن ، بالثياب النـظيفة والهيئة الحسنة ، فـكتب على باب السجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء ،وشماتة الأعداء ،وتجربة الأصدقاء .

الملك يطمئن يوسف ويؤمنه

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾

قد أحضروا الصديق فوراً كان في سجن مهين ٩
مذْ جاء قال له المليكُ : غدوت في أمنٍ أمين ١٠
وكرامةٌ نعطيكها ، ولقد أمنت الكائدين ١١
وتفوز بالتمكين بعد السجن بين المجرمين ١٢

لقد ذهب رجال الملك فوراً مسرعين، إلى السجن، تنفيذاً لأمر الملك ، لقد أخرجوا يوسف من غياهب السجن المظلمة، بيد أنه كان ينير السجن بفكره وعقله، وخلقه، وحسن تعامله مع النزلاء من كل الفئات . وصل يوسف عليه السلام، قصر الملك معززاً مكرماً ، فلما وقف بباب الملك، أدى التحية اللائقة للملك ، مع احتفاظه بكرامته وسلامة دينه ، أى لم يسجد للملك كما يسجد الآخرون عند دخولهم على الملك لتحيته . فلما رآه الملك، عرفه من سمته وجمال صورته ، فقال له: مرحباً بك في قصرنا يا يوسف ، لقد نالك ما تكره من جانب الدولة . . ولم نكن على علم به ، ولسوف نعوضك عما أصابك ، ونمسح آلامك ونرد لك كرامتك ، ونعطيك ما تستحقه من التكريم ، وعلو المنزلة . ولسوف تكون منذ الآن فصاعداً، آمناً من جانبنا، ولن نطيع فيك الوشاة والحاقدين.

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَه ﴾ أى خاطبه الملك وعرفه، ورأى فضله وبراعته، وعلم ما هو عليه من خلق وخُلق، وكما قال: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤)﴾ أى إنك عندنا بقيت ذا أمانة ومكانة .

ـ قال الفخر الرازى في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَه ﴾ فيه قولان:

أحدهما : أن المراد، فلما كلم الملك يوسف عليه السلام ، قالوا : لأن في مجالس الملوك، لا يحسن لأحد أن يبتدئ بالكلام ، وإنما الذى يبتدئ به هو الملك.

ثانيهما : أن المراد ، فلما كلم يوسفُ الملك؛ قيل : لما صار يوسف إلى الملك، وكان ذلك الوقت ابن ثلاثين سنة ، فلما رآه الملك حدثاً شاباً قال للشرابى : هذا هو الذى علم تأويل رؤياى ، مع أن السحرة والكهنة ما علموها ؟! قال : نعم ، فأقبل على

يوسف وقال: إنى أحب أن أسمع تأويل الرؤيا منك شفاهاً ، فأجاب بذاك الجواب شفاهاً، وشهد قلبه بصحته. فعند ذلك قال له: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ يقال : فلان مكين عند فلان، بيّن المكانة أى المنزلة ،وهى حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد .

وقوله تعالى: ﴿ مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه من الفضائل والمناقب ،وذلك لأنه لا بد فى كونه مكيناً ، من القدرة والعلم . أما القدرة، فلأن بها تحصل المكنه. . وأما العلم، فلأن كونه متمكناً من أفعال الخير ، ولا يحصل إلا به .

obeikandl.com

يوسف يتحدث للملك

.....

قد كـان يوسف حاذقـاً ، بل كان ذا عقـل رصين ١٣
فـوراً تحدث لـلـمـلـيـك ،وقـال قـول العـارفـين ١٤
يا أيـها الملـك العـظيم ، هـديت للـرأى الفـطين ١٥
الـرأى عـنـدى والـصواب أراه كـالـنـور المـبـين ١٦

إن يوسف الصديق، ذو لسان فصيح ، يتمتع بمنطق فريد ، قل أن يوجد من يدانيه فصاحة ورجـاحة عقل فى مصر كـلها . . كيف لا ! فهـو نبى من أنبياء الـله ، بل هو سلالة آباء كرام ، هو حفيد الخليل إبراهيم عليه السلام ، مؤيد بوحى الله ، وهو أيضا داعية إلى توحيد الله . . إذن فلا بد أن يكون أفصح أهل زمانه ، وأبلغهم بياناً.

بعد أن استـقبله الملك بالـترحاب، وأوسع له فى مجلـسه ، وأجلسه بجانـبه على سريره ،فى مكان الصـدارة ، وطمأنه بكلام ينبض بالصدق فى كـل كلمة ، بل فى كل نبرة من نبراته ، قال له : أنت اليوم آمن ولن ينالك ما تكره، لما انتهى الملك من حديثه ليوسـف . . أخذ يوسف يتـحدث إلى الملك ، فـكان حديثـه يصل إلى أسمـاع الملك، كلحن محبب يشجى سامعه، أو كالماء البارد على قلب الظمآن .

كان النور يشع من منطقه الفصيح الصادق ، والملك يستمع إليه بكل اهتمام ، كل كلمة من كلام يوسف ، كانت تؤكد للملك أن يوسف هذا ينبغى أن يكون هو سيد هذه الأمة . . فهذا العقل وتلك الأخلاق ليست للسوقة ، بل هى للسادة والملوك .

قال القاضى بـيضاوى فى تفسيره : « دخـل يوسف على الملك، تحدث المـلك معه بلغته،وأجاب يوسف . . تحدث الملك بلغة ثانية ، فجاوبه يوسف بالعربية، سأله الملك! أى لـسان هـذا ؟! قال يـوسف :هـذا لـسان إسـماعـيـل عم أبـى، تحدث مـع الملـك بالـعبرانيـة،سأله الملـك! ما هذا اللـسان ؟! قال: هـذا لسان آبائـى: إبراهيم وإسـحاق ويعقوب . .وكان الملك يتكلم أكثر من لسان ، كان يجيد أكثر من لغة ،ووجد يوسف ، يجيد أكثر من لغة » .

يوسف يطلب من الملك أن يكون خازن المال

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ... ﴾

إن البلاد بحاجة للمخلصين الحازمين ١٧
كى يحفظوا خير البلاد من البغاة المفسدين ١٨
إنى على هذا قدير من خيار الحافظين ١٩
فلتعطنى شرفاً لأحفظ مال مصر من السنين ٢٠

لا يزال الحوار مستمراً متصلاً دون انقطاع ، بين الملك ، وبين يوسف عليه السلام ، وأخيراً لقد اكتفى الملك بما سمعه من حديث يوسف المقنع ، فلقد وجد عنده مالم يجده عند غيره، من رجال بطانته الذين يحيطون به ، بل لم ير فى حياته كلها رجلاً ، اجتمعت فيه كل صفات الكمال، رجاحة عقل ،وسداد رأى ،وعلم غزير لا نظير له بين العلماء ، وفطنة وصدق لهجة مثل يوسف عليه السلام . . .ولم لا . . . ! أليس هو يوسف نبى اللّه ،ابن يعقوب نبى اللّه ، ابن اسحاق نبى اللّه ، ابن إبراهيم خليل الله؟! لقد كان تأثير حديث يوسف عليه السلام ، على الملك قويا مقنعاً ، فأسلم الملك ليوسف القياد ، وسأله الرأى الصائب ، بالنسبة لمستقبل مصر ، وماذا يرى فى شعب مصر.

قال يوسف عليه السلام : أيها الملك! إن مصر بلد حضارى عريق، وشعبها شعب طيب وذكى،بيد أن رجال الحكم فيها ليسوا أمناء،فخيرات مصر تضيع فى غير ما هى مخصصة لها ،إن مصر بحاجة إلى رجال مخلصين يضعون مصلحة الشعب نصيب أعينهم ، يتوخون العدل والحق فى ما يتولونه من أعمال ، فى سلوكهم،وفى شئون حياتهم . لذلك فأنا أطلب منك أيها الملك،أن تشرفنى بإسناد أمر أموال مصر وخزائن أرضها وشئون الناس فيها إلىّ ،فإننى بإذن اللّه أستطيع إدارة هذا الأمر بنجاح وحزم واقتدار .

ـ قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾ مدح نفسه ـ أى يوسف ـ ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره ، للحاجة : وذكر أنه خازن أمين ، ذو علم وبصر بما يتولاه .

قال شيبة بن نعامة : حفيظ لما استودعتنى ، عليم بسنى الجدب « رواه ابن أبى حاتم وسأل العمل ،لعلمه بقدرته عليه ، ولما فى ذلك من المصالح للناس ،وإنما سأل أن يُجعل على خزائن الأرض ، وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات ، لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ،لينصرف لهم على الوجه الأحوط والأرشد ، فأجيب إلى ذلك ، رغبة فيه وتكرمة له » .

تبرير طلب يوسف من الملك

﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

فلتعطني شرفاً لأحفظ مال مصر من السنين ٢٠

قال الفخر الرازى : روى ابن عباس رضي الله عنهما ،عن النبى ﷺ فى هذه الآية: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

رحم اللّه أخى يوسف ،لو لم يقل: « اجعلنى على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ، لكنه لما قال ذلك ، أخره عنه سنة ».

وأقول :هذا من العجائب ، لأنه لما تأبى عن الخروج من السجن ، سهل اللّه عليه ذلك ،على أحسن الوجوه ، ولما تسارع فى ذكر الالتماس ،أخر الله تعالى ذلك المطلوب عنه ، وهذا يدل على أن ترك التصرف والتفويض بالكلية إلى اللّه تعالى أولى.

ثم قال:لقائل أن يقول : لم طلب يوسف الإمارة، والنبى ﷺ ، قال لعبد الرحمن ابن سمرة : « لاتسأل الإمارة » ،وأيضاً فكيف طلب الإمارةمن سلطان كافر ، وأيضاً لم لمْ يصبر مدة ، ولم أظهر الرغبة فى طلب الإمارة فى الحال؟!.. وأيضاً لم طلب أمر الخزائن فى أول الأمر ، مع أن هذا يورث نوع التهمة .

وأيضاً كيف جوز من نفسه بقوله تعالى ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾مع أنه تعالى يقول: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم:٣٢] وأيضاً فما الفائدة فى قوله تعالى: ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾وأيضاً لم ترك الاستثناء فى هذا ، فإن الأحسن أن يقول :إنى حفيظ عليم إن شاء اللّه ؟ ! فهذه أسئلة سبعة لا بد من جوابها .

الأول: أنه كان رسولاً حقاً من عند الله تعالى إلى الخلق ،والرسول يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان .

الثانى :وهو أنه عليه السلام ،علم بالوحى أنه سيحصل القحط والضيق الشديد الذى ربما أفضى إلى هلاك الخلق العظيم ، فلعله تعالى أمره بأن يدبر فى ذلك، ويأتى بطريق لأجله يقل ضرر ذلك القحط، فى حق الخلق .

الثالث :أن السعى فى إيصال النفع إلى المستحقين،ودفع الضرر عنهم أمر مستحسن فى العقول . وإذا ثبت هذا فنقول: إنه عليه السلام كان مكلفاً برعاية مصالح الخلق من هذه الوجوه وما كان يمكنه رعايتها إلا بهـذا الطريق،وما لا يتم الواجب إلا به ،فهو واجب، فكان هذا الطريق واجباً عليه، ولما كان واجباً ، سقطت الأسئلة بالكلية .

وأما ترك الاستثناء فقال الواحدى : كان ذلك من خطيئة أوجبت عقوبة ،وهى أنه تعالى أخر عنه حصول ذلك المقصود سنة .

وأقول : لعل السبب فيه أنه لو ذكر هذا الاستثناء،لاعتقد فيه الملك أنه إنما ذكره لعلمه بأنه لا قدرة له على ضبط هذه المصلحة كما ينبغى ، فلأجل هذا المعنى ترك الاستثناء .وأما قوله لم مدح نفسه فجوابه : لا نسلّم أنه مدح نفسه ، لكنه بيّن كونه موصوفاً بهاتين الصفتين النافعتين ،وفى حصول هذا المطلوب ، وبين البابين فرق ، وكأنه قد غلب على ظنه أنه يحتاج إلى ذكر هذا الوصف ، لأن الملك ، وإن علم كماله فى علوم الدين،ولكنه ما كان عالماً بأنه يفى بهذا الأمر. ثم نقول: هب أنه مدح نفسه ، مدح النفس إنما يكون مذموماً ، إذا قصد الرجل به التطاول والتفاخر والتوصل إلى غير ما يحل . فأما على غير هذا الوجه، فلا نسلم أنه محرم ، فقوله تعالى﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُم**﴾ [النجم:٣٢] المراد منه ، تزكية النفس ما يعلم كونها متزكية ، والدليل على قوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ٣٢﴾ . أما إذا كان الإنسان عالماً بأنه صدق وحق،فهذا غير ممنوع والله أعلم .

قوله: ما الفائدة فى وصفه نفسه بأنه حفيظ عليم ؟! .قلنا : إنه جار مجرى أن يقول حفيظ بجميع الوجوه التى منها يمكن تحصيل الدخل والمال، عليم بالجهات التى تصلح لأن يصرف المال إليها . ويقال : حفيظ بجميع مصالح الناس،عليم بجهات حاجاتهم . أو يقال:حفيظ لوجوه أياديك وكرمك ، عليم بوجوب مقابلتها بالطاعة والخضوع، وهذا باب واسع جداً ، يمكن تكثيره لمن أراده .

تمكين الله ليوسف فى الأرض

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ﴾

سمعَ المليكُ مقالةَ الصديقِ سمْعَ الفاهمين ٢١
من ثَم قال له بحقٍّ : أنت ذو عقل ودين ٢٢
إنى أرى فيك النجابةَ والذكاءَ المستبين ٢٣
ولقد جعلتك خازناً للمالِ دون العالمين ٢٤
كى تحفظ الأموال من أيدى البُغاةِ العابثين ٢٥

الملك يصغى لحديث يوسف الصديق ،كمن يستمع لحناً محبباً أثار كوامن نفسه ، إنه لا يسمع بأذنيه فحسب ، بل عقله وأفكاره ، كانا يشاركان أذنيه الإستماع، كل كلمة كان ينطق بها يوسف الصديق ،كانت تجد طريقها إلى أذنى الملك فيستقبلها عقله وفكره استقبال الظامىء للماء البارد ، فى هجير الصيف . وبرغم هذا فيوسف الصديق، لم يُطِل فى حديثه للملك، لأنه كان كلاماً مركزاً متقناً ، لا حشو فيه ولا لغو ، ثم ختم يوسف الصديق، حديثه للملك بالجملة الخالدة التى سجلها القرآن الكريم هى: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)﴾.

حينئذ هتف الملك قائلا بكل إعجاب: أنت رجل عبقرى، بل أنت الإنسان الذى يفتقر إليه ملكى، فذكاؤك، ورجاحة عقلك، وحلو منطقك، وحسن تدبيرك، كل هذه الصفات، تجعلك جديراً بأن تكون الرجل الأول أعتمد عليه فى كل شىء. ثم أردف قائلا: من واقع تفسيرك لرؤياى ، أشعر بخطر يهدد مصر ، وشعب مصر، أليس قد قلت فى تفسيرك للرؤيا : هناك سبع سنوات قحط ، سوف تعقب سنى الخصب السبع؟!

قال يوسف : بلى . . قال الملك: إذن فهذا الأمر يحتاج إلى حساب دقيق ،وتدبير محكم، ولا أعلم أن أحداً ممن يحيطون بى ،له القدرة على القيام بتلك المهمة الخطيرة .

إذن، فإنى أوليك على خزائن مصر كلها ، تتصرف فيها بما تراه مصلحة مصر ، وشعب مصر ، فأنت الحارس الأمين ، الذى ساقتك الأقدار لإنقاذ هذا البلد من أعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، أولئك الذين لا هم لهم ، إلا إشباع رغباتهم ، وتحقيق مصالحهم الشخصية ، بهذا القرار ، أصبح يوسف الصديق، ممكناً فى مصر كلها، وصاحب الكلمة النافذة فيها .

يوسف له أجران :فى الدنيا والآخرة

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

ثقة المليك بيوسف كانت جزاء الصابرين ٢٦
قد صار يوسف سيداً فى مصر أرض الخالدين ٢٧
بالأمس كان مكبلاً بالذل بين المجرمين ٢٨
واليوم صار مكرماً تكريم رب العالمين ٢٩
هذا جزاء الله فى الدنيا لكل المخلصين ٣٠
وهناك يوم الحشر خير للرجال المتقين ٣١

لقد أصدر ملك مصر قراره الخالد ، بتولية يوسف الصديق، خزائن مصر، وإدارة أموالها وأعمالها ،والتصرف فيها، بحيث لا قيود عليه،ولا رقباء إلا ضميره. ولا غرو ، فملك مصر لا يصدر هذا القرار جزافاً ، فهو رجل ذو فطنة ،فراسة وعقل راجح وحكمة،فهو قد تفرس فى يوسف الصديق ، فرأى الفطنة كلها ، والذكاء كله ، والعقل الراجح ، والإيمان القوى الراسخ ، هذا فضلاً عن تفرده بعلم لا يوجد فى مصر كلها من يساويه فيه ، ألا وهو علم تفسير الأحلام ، الذى يعتبر من كنوز العلوم والمعارف .

إن قرار الملك يتوليه يوسف ، هذا المنصب الخطير ، يعتبر تكريماً فاق كل تكريم ، لقد أعاد هذا القرار ليوسف حريته التى كانت مسلوبة ، وكرامته التى كانت مهدرة جريحة . فهو بالأمس كان فى غياهب السجن المظلمة ، بين فئات نزلاء السجن، المختلفى النزاعات والمفاهيم والأهواء .إنها رحمة من الله ، امتن بها على يوسف الصديق فى الدنيا ، مسح بها آلامه، وآسى بها جراحه ، فلقد أوذى يوسف كثيراً ، فصبر وأحسن فى صبره . . بحيث لم يكن ملولا متبرماً .

قال القرطبى فى تفسيره : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ﴾ أي بإحساننا ،والرحمة النعمة والإحسان ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ أى ثوابهم .

وقال ابن عباس ووهب : يعنى الصابرين ، لصبره فى الجب ، وفى الرق، وفى

السجن ،وصبره عن محارم اللّه،عما دعتـه إليه المرأة . . وقال الماوردى :واختلف فيما أوتيه يوسف من هـذه الحال على قولين: أحدهما : أنه ثواب من الـلّه على ما ابتلاه . الثانى : أنه أنعم الله عليه بذلك تفضلا منه عليه، وثوابه باق على حاله فى الآخرة.

﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى ما نعطيه فى الآخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا ،لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدنيا منقطع .

obeikandl.com

يوسف يعرف إخوته ،وهم لا يعرفونه

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) ﴾

القحط قد عم القرى والناس صاروا جائعين ٣٢
لكنهم هرعوا إلى أرض الكنانة ذاهبين ٣٣
هرعوا لأخذ القوت حتى لا يصيروا هالكين ٣٤
قد كان إخوة يوسف بين الوفود القادمين ٣٥
لما رآهم صار عارفهم ، وليسوا عارفين ٣٦
قد سُرَّ يوسف إذ رأى إخوانه في الوافدين ٣٧

لما ولى الملك أمر مصر وشئونها ، لا سيما الاقتصادية منها إلى يوسف الصديق، سار فى الناس بالعدل والحق ، فأحبه أهل مصر كلهم . . وذلك خلال سنى الخصب. وانتهت السنون السبع المخصبة ، وكان يوسف قد أصدر أوامره لكل الزارعين ، بأن يتوسعوا فى زراعة القمح، وذلك انتظار لسنى القحط المجدبة المرتقبة . . وقد جمع كل ما أنتجته المزارع، فى السنوات السبع المخصبة، بحيث ضاقت عن استيعابها ما لدى الدولة من أماكن لتخزين الغلال. وجاءت سنون القحط، وكان يوسف قد أعد العدة لمواجهتها ، وذلك فى مصر فحسب، أما بقية البلاد خارج حدود مصر، فلم يكونوا على علم بالقحط المرتقب ، ليتخذو التدابير والاحتياطات اللازمة لمواجهته . لقد عمت المجاعة فى أنحاء الأرض، فمن ثم هرع الناس من كل مكان متجهين صوب مصر ، بحثاً عن الطعام، وتطايرت الأنباء ،أن مصر فيها طعام . صار الناس يأتون مصر وفوداً ،معهم الإبل لحمل الطعام، ثم يعودون إلى أهليهم مسرعين، معهم الطعام إلى ذويهم. .الطعام الذى هو قوام الحياة . .وكان إخوة يوسف قد أقبلوا ضمن الوفود القادمين . . فلما رآهم يوسف، عرفهم . . أما إخوته فلم يعرفوه ، ذلك لأنه كان صغيراً حين تركوه فى الجب ، وكانوا يظنون أنه قد مات ، وإن لم يكن قد مات ، فليس معقولاً أن يصل إلى هذه المكانة !

قال ابن كثير: «ذكر السدى ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين: أن السبب الذى أقدم إخوة يوسف بلاد مصر، أن يوسف عليه السلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السبع السنين المخصبة، ثم تلتها سنين الجدب، وعم القحط بلاد مصر بأكملها، ووصل إلى بلاد كنعان، وهى التى فيها يعقوب عليه السلام وأولاده، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للناس، فى غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وأهراء متعددة هائلة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتازون لأنفسهم وعيالهم ، وكان لا يعطى الرجل أكثر من حمل بعير فى السنة » .

يوسف يسأل إخوته

.....

نـاداهم الـصديـق : من أنـتم ! أجـابوا قـائلـين ٣٨
إنـا بـنو يـعـقـوب آل البـيـت نـسـل المرسـلـين ٣٩
قـحط الـبلاد أصـابنـا ،جئـنا مـجيء المـكرهـين ٤٠
جـئنـا لـكـى نكـتـال ثـم نعـود عـود الـغانمين ٤١
كـى نطـعم الأفـواه من جـوع فـنعـم المطـعمـين ٤٢

لما دخل أبناء يعقوب على أخيهم يوسف الصديق،فى المكان المعد لاستقبال الوفود، وقد رآهم فـعرفهم ،أما هـم فلم يعرفـوه . . فسألهـم يوسف ، من أنتـم ؟! ومن أين قدمتم ؟! قالوا : أيها العزيز ، نحن أبنـاء يعقوب ، نبى اللّه . . نحن آل بيت النبوة ، أحفاد إبـراهيم خليل الـله . قدمنا إليـكم من بلاد الشـام ، جئنا لأجل الميـرة ـ نجلب الطعام لأهـلينا ـ لقد أصاب الـقحط بلادنا ،وصار الـناس فى مجاعة ، وقد جـعل الله الخير فى مصر ، وجعلك خازناً تعطى الناس ما يحتاجونه بالحق والعدل ،ولولا المجاعة ما جئنا مصر،ذلك لأن ليس لنا بها من حاجة،وقد خلفنا وراءنا شيوخاً وأطفالا ونساء ، الجوع يهدد حياتهم،ويوشك أن يقضى عليهم، إن لم نسرع لهم بالغوث .

قال الأستاذ أحمد بهجت فى كتابه « أنبياء الله »: جاء الإخوة الذين ألقوه فى البئر، جاء أولاد يعقوب فى صفوف الجماهير الطويلة صاحبة الحاجة ، وهو يجلس على عرش مصر،حاكماً مطاعاً،يأمر وينهى ويتحكم فى لقمة عيش الناس ، يحف من حوله وزراؤه وجنده وأبهتـه . عرف يوسف إخوته على الفـور ، ولم يعرفوه هم ، يستحـيل أن يعبر طيف يوسف أفكارهـم الآن ، لقد تخلصوا منه،من زمان بعـيد . . وضاق بهم الحال، فجاءوا من فلسطين يبحثون عن الـطعام فى مصر . وأجرى يوسف حواره مع أخوته ، بغير أن يكشف لهم عن نفسه ، كان عدد الإخوة عشرة ، وكان معهم أحد عشر بعيراً ، سألهم يوسف ـ مستخدماً أحد المترجمين لكى لا يتـحدث لغتهم العبرانية ـ نظامنا يقضى بإعطاء كل إنسان قدر بعير من الطعام ، كم عددكم ؟! قالوا : نحن أحد عشر .

يوسف يبادل إخوته الحديث ويعرف منهم حال أبيه

.....

قد أردف الصديق يسألهم سؤال المستبين ٤٣
إنى أراكم عشرة، أى إخوة متآلفين! ٤٤
فلتخبرونى هل تركتم خلفكم متخلفين؟! ٤٥
قالوا: تركنا الشيخ معه صغيره وبه ضنين ٤٦
هو حِبّه كأخيه يوسف كان من خير النبيين ٤٧
اثنان إخوتنا ، وليس لأمنا ، هذا يقين ٤٨
لكن يوسف لم يعش وأبوه ظل على الأنين ٤٩

يوسف الصديق يواصل سؤال إخوته، لما قالوا له : نحن أحد عشر أخاً، قال لهم: لقد ذكرتم أنكم أحد عشر أخاً ، لكننى أراكم عشرة فحسب! فهل تركتم وراءكم أحداً فى دياركم ؟!

قالوا : نعم تركنا أبانا يعقوب ، هو شيخ كبير ، ومعه ولده ، هو أصغرنا سناً ، ظل عنده يؤنسه ويسليه ،لينسى همومه وأحزانه على ولده يوسف ،لقد كان يحبه حباً لا مزيد عليه ، لكنه مات منذ زمن بعيد ، ومن ثم فهو حزين عليه ، منذ أن افتقدناه من سنين طويلة حتى الآن . وأخونا الأصغر الذى ظل عند أبيه ، هو ويوسف أخوان لنا ، لكن من أم أخرى، فلما مات يوسف ، ازداد أبونا تمسكاً بالثانى ، من زوجته الثانية، فهو أثير لديه ،لايقدر على بعده عنه أبداً. . ولا يحب مفارقته مطلقاً . قال لهم يوسف: إن النظام الموضوع هنا ، لتوزيع الطعام على الناس، أن لكل رجل حمل بعير ، وأنتم عشرة فقط . . ومع هذا سأعطيكم أحد عشر حملاً ،لأجل أخيكم الغائب الذى قلتم ظل عند أبيه ليؤنسه ويسليه عن أحزانه على ولده يوسف المفقود .

قال ابن كثير فى تفسيره: « إنه ـ أى يوسف ـ شرع يخاطبهم ،فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادى ؟! قالوا :أيها العزيز ! إنا قدمنا للميرة ،قال: فلعلكم عيون؟! جواسيس ـ قالوا: معاذ الله ،قال : فمن أين أنتم؟! قالوا: من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب ،نبى اللّه ،قال: وله أولاد غيركم ؟! قالوا نعم، كنا اثنى عشر، فذهب أصغرنا، هلك فى البرية، وكان أحبنا إلى أبيه ، وبقى شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم » .

أبناء يعقوب يتجهزون للرحيل

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾

قد أنزل الصديق إخوته كخير المنزلين ٥٠
أعطى لهم من خير ما أعطى لقوم آخرين ٥١
قد جهزوا أوثاقهم كيما يعودوا قافلين ٥٢
لكن يوسف قال يوصيهم وصية ناصحين ٥٣
فلتسمعوا قولى وكونوا للمقالة مدركين ٥٤

لقد انتهى الحوار بين يوسف الصديق عليه السلام ،وبين إخوته ، وذلك بعد أن وجه إليهم عدة أسئلة ، اطمأن من خلالها على أبيه وأخيه ، وأنهما لا يزالان على قيد الحياة، من ثم أمر بإنزالهم أحسن منزل ، وأغدق عليهم فى الإنفاق، بحيث بهرهم من شدة إكرامه لهم . . ولا غرو فهم إخوته ،وهم أحق الناس بالكرم والتكريم، ثم أصدر أوامره للعمال والخدم ،القائمين على الكيل والحراسة ، أن يعدوا لإخوته أحد عشر حمل بعير .الواقع أن هذا كان استثناء خاصاً لإخوته ،لأن النظام المعمول به ، أن لكل رجل حمل بعير فقط . . وهؤلاء عشرة رجال ،وقد أعطوا أحد عشر حملاً ، فلماذا ؟!

كان هذا التساؤل باديا على وجوه القوم ،من العمال والخدم والحراس ، والوفود أيضاً . .بيد أن الجواب على هذا التساؤل المكتوم ،جاء على لسان يوسف عليه السلام نفسه، أنه استثنى هؤلاء القوم من القرار ،الذى يعاملون كل الوافدين به ، ذلك لأنه تبين أنهم أحد عشر أخاً فعلاً فهؤلاء عشرة،وأخوهم الحادى عشر تخلف عند أبيه لأسباب هامة ، فأعطاهم نصيب أخيهم ذاك.لقد جهزوا أوثاقهم،واستعدوا للرحيل، عائدين إلى بلادهم،فى فلسطين من أرض الشام،إلى حيث ينتظرهم أبوهم ، بل كل آل يعقوب من النساء والأطفال .بيد أن الفخر الرازى يقول: إن يوسف أعطى إخوته العشرة ، عشرة أحمال،وزادهم حملين آخرين لأبيهم وأخيهم،وهذا قوله:«إن عادة يوسف عليه السلام ، مع الكل أن نعطيه حمل بعير ،لا أزيد عليه ولا أنقص ،وإخوة يوسف الذين ذهبوا إليه كانوا عشرة،فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا : إن لنا شيخاً كبيراً وأخاً آخر بقى معه ، وذكروا أن أباهم لأجل سنّه،وشدة حزنه لم يحضر،وأن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما أيضاً من شىء من الطعام ، فجهز لهما أيضاً بعيرين آخرين من الطعام » .

يوسف يطلب إحضار بنيامين

﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُم ﴾

لكن يوسف قال يوصيهم وصية ناصحين ٥٣
فلتسمعوا قولى وكونوا للمقالة مدركين ٥٤
إذ ما أردتم عودة للكيل عود الراغبين! ٥٥
هاتوا أخاكم من أبيكم فليكن فى الوافدين ٥٦

لما همَّ أبناء يعقوب بالرحيل ، عائدين إلى بلادهم وذويهم ، تحدث يوسف عليه السلام إليهم فقال لهم: إنى أوصيكم وصية صادقة ،إن كنتم عقلاء ـ وإنكم لكذلك ـ فاسمعوا قولى، ونفذوا ما أوصيكم به . . فوصيتى أسديها لكم خالصة لوجه الله . ذلك لأننى تأثرت بكم ، فأهمنى أمركم لكونكم ـ كما ذكرتم ـ من سلالة آباء كرام، لذا فإننى أبغى لكم الخير،لا أريد منكم جزاء ولا شكورا.بعد أن انتهى يوسف من حديثه لإخوته ، ودعهم بحرارة وانقلبوا عائدين متجهين إلى أرض فلسطين ، لقد كان يوسف عليه السلام ، يتمنى أن يرافقهم فى رحلة عودتهم، ليملأ عينيه برؤية أبيه الحزين ،وأخيه بنيامين الذى يحن لرؤيته أشد الحنين.بيد أن يوسف عليه السلام ،لم ينس حين ودعهم أن كرر نصحه لهم ، ولكن نصحه هذه المرة كان مشفوعاً بكلام آخر وهو : إن شئتم العودة إلينا مرة ثانية ، لأجل الميرة ،فلتحضروا معكم أخاكم الذى تركتموه وراءكم ـ كما قلتم ـ وقد صدّقنا قولكم ، فأعطيناكم حملاً لأجله . . وذلك الحمل زائد على العدد المقرر لكم .

قال الفخر الرازى فى قوله : ﴿ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُم ﴾ لعلهم لما ذكروا أباهم قال يوسف: فلم تركتموه وحيدا فريدا ؟! قالوا : ما تركناه وحيداً ، بل بقى عنده واحد ، فقال لهم : لم استخلصه لنفسه ، ولم خصه بهذا المعنى ؟! ألأجل نقص فى جسده ! فقالوا: لا ، بل لأجل أن يحبه أكثر من محبته لسائر الأولاد .فعند هذا قال يوسف: لما ذكرتم أن أباكم رجل عالم حكيم ، بعيد عن المجازفة ، ثم إنه خصه بمزيد المحبة ، وجب أن يكون زائداً عليكم فى الفضل ، وصفات الكمال، مع أنى أراكم فضلاً علماء حكماء ، فاشتاقت نفسى إلى رؤية ذلك الأخ فأتونى به .

يوسف يذكر إخوته بإكرامه لهم

﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾ .

أفليس قد أوفيتكم كيلاً وكنتم مكرمين؟! ٥٧
إنو لمْ يجئ معكم فلا تأتوا لكيل طالبين ٥٨
فلتدركوا ما قلته كونوا لنصحى فاهمين ٥٩

قال الفخر الرازى فى قوله تعالى: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ أى أتمة ولا أبخسه . وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم . . وخير المنزلين، أى خير المضيفين ،لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم . . ثم قال: اعلم أنه عليه السلام لما طلب منهم إحضار ذلك الأخ ،جمع بين الترغيب والترهيب. أما الترغيب فهو قوله تعالى: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ وأما الترهيب فهو قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) ﴾ وذلك لأنهم كانوا فى نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام ،وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ،فإذا منعهم من الحضور عنده ، كان ذلك نهاية الترهيب والتخويف .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى « القصص القرآنى »: « وهنا وجد يوسف فرصة فى معاسرتهم ، والتضييق عليهم ، وأخذهم بشىء من الابتلاء الذى سقوهم كأسه مترعة ، فطلب إليهم أن يأتوه بهذا الأخ الذى لهم من أبيهم ـ كما يقولون ـ ليكون ذلك دليلاً على صدقهم فيما قالوه ، من أنهم أبناء يعقوب نبى اللّه ، وإلا فإنه لن يتعامل معهم ، ولن يعطيهم من ميرة مصر شيئا. ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ .وهكذا ترك يوسف إخوته يعودون إلى بلادهم ، بعد أن حمل كل واحد منهم حمل بعير من الحب » .

قال ابن كثير فى قوله تعالى: «﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِم ﴾أى وفاهم كيلهم ، وحمل لهم أحمالهم قال: ﴿ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾، هذا الذى ذكرتم ، لأعلم صدقكم فيما ذكرتم : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩)﴾ يرغبهم فى الرجوع إليه ، ثم رهبهم فقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ إن لم تقدموا معكم فى المرة القادمة ، فليس لكم عندى ميرة ».

أبناء يعقوب يعدون يوسف بإحضار بنيامين

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴾

قالوا :فلن يرضى أبوهُ ، لأنه شيخٌ حزين ٦٠
من بعد يوسف لم يكفّ عن البكاءِ مدَى السنين ٦١
لكن سنسأله ونرجو أن يجيب وأن يلين ٦٢
فلعلهُ يرضى ويعطينا الغلام المستكين ٦٣

بعد أن انتهى يوسف عليه السلام ، من الحديث مع إخوته ، إذ قال لهم : إذا شئتم أن تعودوا مرة ثانية ،إلى مصر لأجل الميرة، فليكن أخوكم معكم .قالوا : ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)﴾ .إنهم يعدون يوسف وعداً غير قاطع ، بأنهم سوف يطلبون من أبيهم أن يرسل أخاهم معهم،وسوف يحاولون إقناعه، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً .ذلك لأنهم يعلمون أن أباهم يعقوب،لن يأمنهم عليه وبالتالى فلن يعطيهم إياه،فهو منذ أن فقد ولده يوسف،لم يكف عن البكاء ليل نهار،حتى الآن،ولاغرو،فمن شدة حزنه على يوسف، وكثرة بكائه المتواصل، أذهب البكاء نور عينيه، فصار أعمى لا يبصر .وبرغم هذا ،فالوا ليوسف: سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون،أى سنطلبه منه، وسوف نتلطف فى الطلب ، وسوف نحاول إقناعه . . فلعله يتنازل عن رأيه ،وإصراره الذى نعرفه عنه . . وهو أنه لن يسمح لولده هذا بالبعد عنه ،مهما كانت الأسباب .بيد أنه إذا ما استجاب لنا،ووافق على إرساله معنا ،فإننا سوف نكون سعداء لكوننا وفّينا ،وأثبتنا صدق قولنا .

قال القرطبى فى تفسيره:« ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)﴾ أى سنطلبه منه، ونسأله أن يرسله معنا، وضامنون المجىء به ومحتالون فى ذلك.

مسألة ـ إن قيل : كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ؟ قيل له:عن هذا أربعة أجوبة أحدها : يجوز أن يكون اللّه عز وجل أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب، فاتبع أمره فيه .

الثانى : يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقوب على حال يوسف عليه السلام .

الثالث : لتضاعف المسرة ليعقوب برجوع ولديه عليه .

الرابع: ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه ، قبل إخوته ، لميل كان منه إليه » .

يوسف يأمر بوضع بضاعة إخوته فى رحالهم

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾ .

فتيان يوسف حوله كانوا جميعاً واقفين ٦٤
أوحى لهم ، دُسوا البضاعة فى رحال العائدين ٦٥
إذ ما رأوها عند عودتهم يصيروا لائمين ٦٦
فيكون هـذا دافعـاً لمجيـئهم ، هـذا يقـين ٦٧
فـوراً أطاعـوا أمـره كانـوا بحـق فـاهمين ٦٨

فى الوقت الذى كان يوسف يتحدث فيه مع إخوته قبيل رحيليهم بقليل، كان هو قد قرر أمرا، اتفق مع عماله وخدمه، الذين يعملون تحت إمرته فى الكيل والوزن لكل الوفود. أمر يوسف الصديق، عماله وخدمه، أن يضعوا بضاعة أبناء يعقوب، البضاعة التى جاءوا بها معهم ثمناً للطعام، أمرهم أن يضعوها لهم فى أمتعتهم خفية، بحيث لا يرونهم أثناء إخفائها فى الأمتعة، ولا يرون البضاعة ساعة سفرهم ، ولا أثناء رحيلهم متجهين إلى أهليهم فى فلسطين من أرض الشام . يوسف الصديق أقدم على هذا العمل، لعلمه أن إخوته، بعد أن يصلوا إلى أهليهم، هنالك سوف يكتشفون أن بضاعتهم، قد عادت معهم، لم يعطوها لعزيز مصر ثمناً لأحمال الطعام الذى أخذوه. حينئذ سوف يجدون أنفسهم ، مضطرين للعودة إلى مصر، على الأقل ليؤدوا ثمن الطعام الذى أخذوه، فليس من خلقهم، أن يأكلوا شيئا لا يؤدون ثمنه، من ثم سوف يتحقق ليوسف ما أراد .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى كتابه« القصص القرآنى»فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾ . فلقد قدر يوسف، أن إخوته إذا عادوا إلى مصر [١] وفتحوا أمتعتهم، ثم وجدوا فيها البضاعة التى كانوا قد حملوها معهم إلى مصر، وقع فى أنفسهم أن فى الأمر خطأ، وأن العزيز ـ أى يوسف ـ قد نسى هو أو أتباعه، أخذ هذه البضاعة، فى مقابل ما أخذوه من ميرة مصر، وهذا من شأنه أن يحملهم العودة إلى مصر مرة أخرى، ليردوا هذه البضاعة التى لم يكن لهم حق فيها، إن دينهم ـ كما يعلم يوسف ـ يمنعهم من أخذ ما ليس لهم».

(١) لعل الصواب [إذا عادوا إلى أهليهم فى الشام] .

يطلبون من أبيهم أن يرسل معهم بنيامين

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) ﴾ .

قـدْ عـادَ إخوةُ يوسـفٍ للأهل عـَوْدَ الغانمين ٦٩
وصـَلوا لأهليـهم، وكـانوا مـن رحيـلٍ متـعبـين ٧٠
واستـقبلَ الشيخُ الكبـيرُ بنـيه كانوا غائبـين ٧١
عن قول يوسفَ أخبَرُوه، ولم يكونوا كاذِبين ٧٢
قَالوا: فإن عـُدنـَا لمصـرَ لأجـل كـيل طالبـين! ٧٣
لا بـدْ يصحبـنا أخُونا ، وهـوفى أمـنٍ أمين ٧٤
أرسـلْه مـعْنـَا سـوفَ نـحفـظُه مـن المتطـاولـين ٧٥

وصلت القافلة التى تضم أبناء يعقوب، إلى قريتهم ، إلى حيث الأهل والأحباب، لقد عادوا بعد غيبة طويلة، عادوا ومعهم القوت، الطعام الذى به قوام الحياة . . جلبوه من مصر ، مصر التى لها اليد الطولى على كل من حولها من الأمصار .ولا غرو فالمجاعة تهدد الأحياء جميعاً ، فى كل بقاع الأرض بالفناء . وهذه مصر يهرع الناس إليها ،من كل حدب وصوب،من كل أنحاء الأرض، ليجدوا فيه ما يقيم الأود، ويبقى على الحياة، وتلك لعمر الله مفخرة لمصر على كل بلاد الدنيا ، ودين لها على كل الأصقاع . . دين واجب الأداء فى كل زمان، يودى لمصر صاحبةالفضل فى تلك الحقبة من الزمن !! فرح نبى الله يعقوب عليه السلام . بعودة بنيه سالمين ، وغانمين أيضاً . بعد أن استقر بهم المقام، بدأوا حديثهم مع أبيهم ،أخبروه بما حدث لهم مع عزيز مصر ، وعن إكرامه الزائد لهم ، وماذا دار بينه وبينهم من حوار، وعن النظام المعمول به فى مصر،لتوزيع الطعام على كل الوافدين. . إذ كل وافد له حمل بعير . إذن فنحن نطلب منك يا أبانا ، أن ترسل معنا أخانا ، وذلك لكى ينال نصيبه من الطعام مثلنا، وهو حمل بعير . . ولقد تلطف بنا عزيز مصر ، حينما قلنا له: نحن إخوة أحد عشر، لكن أخونا الحادى عشر، ظل عند أبيه كى يؤنسه ويسليه، مدة غيابنا عنه ، فصدق كلامنا وأعطانا حملاً لأجله . لذلك نرجوك يا أبانا أن ترسل معنا أخانا ، فى الرحلة القادمة إلى مصر،وذلك لكى نثبت لعزيز مصر أننا صادقون،ولسنا كاذبين .أرسله معنا يا أبانا ، وسوف نحرسه ونحميه من كل أذى ،ولن يصيبه مكروه أبداً، لسوف نحفظه من كل سوء ما دمنا أحياء وفينا عين تطرف .

أبوهم يوافق على إرساله معهم

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾.

الشيخُ قالَ لهم: فكفُّوا، لا تكونُوا جَاهلين ٧٦
هل تذهبون به كما كنتم بيوسفَ ذاهبين؟! ٧٧
لكنْ لأجلِ العيشِ قد أرضى رضاءَ المكرهين ٧٨
والله يحفظُكم جميعاً ،فهْو خيرُ الحافظين ٧٩

لقد استمع نبى اللّه يعقوب لحديث أولاده ، وقد أدهشه أن عزيز مصر ، طلب منهم أن يحضروا أخاهم معهم !! وسرعان ما عاد بذاكرته إلى الوراء ، وذلك حينما جاءه هؤلاء الأبناء أنفسهم ، فطلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم يوسف ، ليرتع ويلهو ويلعب فى الصحراء.

ياللّه !! ما أشبه هذا الموقف بذاك.. التاريخ يعيد نفسه.. نفس الصورة تتكرر ، والشيخ فى الوقت نفسه يجتر الذكريات الحزينة، بيد أنه قال لهم : لا ، لا تقولوا هذا القول مطلقاً ،لن أسلمكم ابنى .. فلقد ذهبتم بيوسف من قبل ،ولم تعودوا به، قلتم: أكله الذئب فى الصحراء، واللّه أعلم بكم وبأعمالكم . قالوا: يا أبانا ! إن لم ترسله معنا ، فلن نحصل على حقنا المقرر لنا من الطعام.. وعلى كل حال، نرجو منك ألا تتعجل فى إصدار القرار. .ففكرالشيخ فى الأمر ملياً ثم قال : إننى لا أجد مفراً من إرساله معكم ،لأن عدم إرساله معناه حرماننا من الطعام، كما ذكرتم فى حديثكم . وعلى كل حال فقولكم : إنكم سوف تحفظونه من كل سوء ، ليس هذا هو الذى جعلنى أوافق على إرساله. فقد قلتم القول من قبل ،لما طلبتم منى يوسف ، ومن ثم فإننى أقول: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) ﴾ . إننى أسأل اللّه أن يحفظه من كل كيد،رحمة بشيخوختى من ناحية ،وبشبابه من ناحية أخرى .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى« القصص القرآنى» : « وفى تلك الحال التى استولت على يعقوب من هذا الخبر المزعج ، الذى تلقاه من أبنائه ،وأنه لن يكال لهم

حتى يأخذوا أخاهم معهم ،لم يجد بداً من التسليم ـ مقدماً ـ بما لا بد من التسليم به، تحت وطأة هذا الظرف العصيب فيقول لبنيه : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ .

لقد تمثل يعقوب فى هذا الموقف ،ما كان منهم من إلحاح عليه فى طلب يوسف، ليرتع ويلعب معهم كما كانوا يقولون . . ! لقد تمثل له هذا الموقف ،فرأى فيما يطلبه منه أبناؤه الآن ،صورة مشابهة تماماً له، وأن الذى دبروه ليوسف من كيد ،ليس ببعيد أن يدبروا مثله لأخيه ».

obeikandl.com

لقد وجدوا بضاعتهم مخبوءة فى رحالهم

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ .

فتحوا المتاع إذا بضاعتهم! غدواْ متسائلين ٨٠
فتلاوموا من كونهم قد أشبهوا للسارقين ٨١
من ثم قالوا : يا أبانا ، قد غدونا حائرين ٨٢
هذى بضاعتنا أتتْ معنا ،ولسنا فاهمين ٨٣
هيا فسوف نعيدها لعزيز مصر،مبادرين ٨٤
هذا إذا شئنا العدالة ، أو سنغدو ظالمين ٨٥

لقد سُرَّ أبناء يعقوب ،لكون أبيهم وافق بعد لأى وجهد ،على أرسال ولده معهم، فى حين أنهم كانوا يشكون فى موافقة أبيهم على ذلك ، مهما كانت الأسباب .على كل حال ، لقد وافق الشيخ على إرسال ولده مع إخوته ، لأن ذلك كان حتماً، كان أمراً ضرورياً ، لا مفر منه ، ولا معدى عنه ، كما تبادر إلى فهمه من مقال أولاده . قد كان هذا الحوار ، بين الشيخ وبين أولاده، قبل أن يفتحوا أمتعتهم، ثم اتجه كل واحد منهم إلى حمل بعيره ،وفتحوا أمتعتهم . . وهنا بدت الدهشة على وجوههم جميعاً، لقد وجد كل منهم البضاعة التى كان قد أخذها معه ، ليشترى بها الطعام !!يالله!! هل نسى عزيز مصر أن يأخذ ثمن الطعام ؟! أم ماذا ؟! فأخذ كل واحد منهم ينحنى باللائمة على الآخر، لقد شعروا بالحرج من كونهم كافأوا عزيز مصر على إكرامه لهم ، بعدم دفع ثمن الطعام. . وتصوروا بأن عزيزمصر، سوف لا يغفر لهم هذا ، حينئذ هتفوا قائلين : ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ . قالوا لأبيهم : يا أبانا إننا فى أشد الحرج والحيرة ، لقد وجدنا بضاعتنا موجودة فى رحالنا ، فمن ثم وجب علينا أن نسرع بالعودة إلى مصر ، وذلك لكى نعطى الحق لأصحابه،وإلا كنا كالسارقين سواء سواء .

قال ابن كثير فى تفسيره :«﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ولما فتح إخوة يوسف متاعهم،وجدوا بضاعتهم ردت إليهم، وهى التى كان أمر يوسف فتيانه بوضعها فى رحالهم، فلما وجدوها فى متاعهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾؟! أى ما نريد ؟ ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ كما قال قتادة: ما نبغى وراء هذا ؟! إن بضاعتنا ردت إلينا، وقد أوفى لنا الكيل » .

يتحدثون عن زيادة الكيل

﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) ﴾

أما أخونا فهو فى أمن من الكيد المهين ٨٦
ونصيبه سيكون حملا من طعام الآكلين ٨٧
الحمل سوف يزاد مع أحمالنا ، هذا يقين ٨٨

لا يزال أبناء يعقوب يتحدثون إلى أبيهم ، بشأن البضاعة التى وجدوها قد عادت معهم فى أمتعتهم. . وتلك البضاعة هى ثمن الطعام الذى كالوه من مصر، إذن فالقول كله يدور حول معنيين اثنين .أحدهما : أن هذه البضاعة هى حق عزيز مصر ، الثانى : المبادرة بالعودة إلى مصر ، لإعطاء الحق لأهله . . فليس هذا هو جزاء عزيز مصر ، الذى أنزلنا فى ضيافته،وأحسن إلينا ، وأكرمنا كرمًا لا يقل قدراً عن أفعال آل يعقوب .

إن العودة إلى مصر حتمية يا أبانا ،لا مفر منها ،لنؤدى الدين الذى فى أعناقنا لأصحابه ،هذا من ناحية، ونعود بأحمال الطعام ،مع زيادة حمل بعير ،لأجل أخينا الذى سوف يرافقنا فى هذه الرحلة، من ناحية أخرى. . وثمة أمر ثالث هو: أن نثبت لعزيز مصر أننا صادقون ، فنقدم له أخانا ، فيراه ويتأكد منه .

قال الأستاذ عبد الرحمن الخطيب فى « القصص القرآنى » :«﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥)﴾الواو فى ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ هى واو العطف على محذوف تقديره:إذا كان ذلك،فإنا سنعود إلى مصر ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾أى نأتيهم بالميرة ،وهى الطعام ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾الذى سترسله معنا ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ حيث سيكون له حمل بعير، كما أن لكل واحد منا بعير! وانظر كيف استدعوا أخاهم من أبيهم ،بهذا الأسلوب اللبق الحكيم﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾لقد جعلوا أخذ أخيهم معهم طلبا ثانيا بعد الطلب الأول، وهو الميرة وربطوه به ، بحيث لا تكون الميرة إلا وأخوهم معهم.ثم هم من جهة أخرى يقولون: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ولا يقولون: ونأخذ أخانا كأن أخذه أمر مفروغ منه ،لا مراجعة لأبيهم فيه، فهم آخذوه ،وحافظوه . . إلخ ما قال » .

يعقوب يستوثق من أولاده بشأن بنيامين

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ .

الشيخ قال لهم: فكونوا للمقالة مدركين٨٩
إني المجيب لما طلبتم بالشروط الحازمين٩٠
أن تقسموا بالله ربِّ العرش ربّ العالمين٩١
أن تحفظوه من الأذى ما لم تكونوا عاجزين٩٢

لقد انتهى أبناء يعقوب من الحديث إلى أبيهم ، بشأن إرسال أخيهم بنيامين معهم، وذلك لسببين اثنين:

١ـ لكي يعيدوا الحق إلى أصحابه بمصر ، أى ثمن أحمال القمح التى أخذوا ، وقد تبينوا أن بضاعتهم التى كانوا أخذوها معهم ، لشراء أحمال الطعام، بينوا عند عودتهم إلى أهليهم ، أنها موجودة فى رحالهم ،وكانت هذه خطة يوسف عليه السلام . حينما أمر فتيانه قائلاً لهم : ﴿ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِم ﴾.

٢ـ ليؤكدوا ليوسف عليه السلام صدقهم ،بأن لهم أخاً وليسوا كاذبين،وليعودوا بالميرة وزيادة حمل بعير .

أطرق نبى الله يعقوب: يفكر فى أمر إرسال ولده بنيامين مع إخوته ،وما قالوه تبين له أن ذلك أمرحتمى لا مفر منه . . بيد أنه يفكر فى الضمان،إنه يريد أن يستوثق من أولاده . .يريد أن يكبلهم بقسم يقسمونه أمامه، أنهم لن يتهاونوا فى حفظ أخيهم، مهما كانت الظروف، ولسوف يعيدونه معهم سالماً ،ما لم يكونوا مغلوبين على أمرهم فقال : ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ ولا غرو، فموقف أبناء يعقوب الآن ، ليس كموقفهم السابق، لما طلبوا يوسف من أبيهم ، لأنهم فى المرة الأولى ،تظاهروا بالحرص والحدب على يوسف، بينما كانت قلوبهم تقطر مرارة وغلاً وحقداً عليه وفى الوقت نفسه كانوا مبيتين النية للغدر به. . أما هذه المرة فهم صادقون ، فليس لديهم نية الغدر بأخيهم هذا .

لذلك لما طلب أبوهم منهم أن يقسموا أمامه ، أنهم سوف يحفظون أخاهم من كل سوء ، وأنهم سوف يعيدونه سليماً معافى ، ما لم يكونوا فى موقف لا قبل لهم به، أى فوق طاقتهم وقدرتهم ، لم يتوانوا .

أبناء يعقوب يقسمون أمام أبيهم

﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ .

قد أقسمو اللشيخ حتى يطمئن ويستكين ٩٣
لما اطمأن الشيخ صاروا كلهم متوكلين ٩٤

لقد طلب يعقوب من أولاده، أن يقسموا بالله أمامه ،للحفاظ على بنيامين، فأبدوا استعدادهم جميعا ، بل أقسموا فعلاً ، حينئذ اطمأن قلب يعقوب ، ولم يخامره الشك هذه المرة فى صدق أولاده .« أخذ يعقوب عليه السلام ،الموثق من أبنائه ، ليس فيه البتة منافاة لإيمانه بالقضاء والقدر والتوكل على الله ، بدليل أنه أخذ الموثق من أبنائه بألا يفعلوا من جانبهم ، أى ضرر يقدرون على عدم فعله، أما ما لا بد لهم فيه،فقد جاء على لسانه قبل أخذ الموثق ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤)﴾ وجاء على لسانه بعده ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ بل إن ما فعله يعقوب من أخذ الموثق على الإخوة الذين فعلوا بيوسف ما فعلوا ، يعتبر درساً نافعاً لكل ذى بصيرة نيرة .

والمؤمن لا يلدغ من حجر مرتين ، وإن يعقوب قد أخذ الموثق من أبنائه وفلذات كبده ، فمن باب أولى أن يؤخذ الموثق من سواهم ، ممن قد يخشى أذاهم .

ثم . . إن اطمئنان يعقوب لأبنائه ، بأخذ الشقيق ، بعد إعطاء الموثق ، شهادة منه بصلاح أبنائه ، وأنهم يقدّرون العهد الذى آتوا حق التقدير ،ولو كان اعتقاده فيهم بغير ذلك ، لما فكر البتة فى طلب الموثق الذى سيعطى ، ولكن لن ترعى له حرمة»(١).

قال ابن كثير فى قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ أى أكده عليهم فقال: « ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾ قال ابن إسحاق : وإنما فعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التى لا غنى لهم عنها ، فبعثه معهم » .

---

(١) تأملات فى سورة يوسف للدكتور حسن محمد باجوده .